المكان في مجموعة (عندما تحترق القناديل) لحسن عبد الله القرشي "دراسة في ضوء المنهج الموضوعي"

أ. د. مريم عبد النبي عبد المجيد
جامعة البصرة/ مركز دراسات البصرة والخليج العربي

المستخلص:
يرد المكان في ديوان) عندما تحترق القناديل) للشاعر حسن عبد الله القرشي ليضمّ مظاهر وتجارب تنفتح على هواجس تمتلك الأنا، عبر نصوص استلهمت وصف المكان الواقعي والنفسي المهيمن على الذاكرة، وقد استلهم الشاعر في مجموعته هذا المنحنى ليصور معاناة النفس وأفراحها ويكشف أفكاره ووعيه عبر دلالات تشير لتراكمات الماضي ووطأة الحاضر وما يفتحه من مشاعر في الذات.
الكلمات المفتاحية: عندما تحترق القناديل, حسن عبدالله, القرشي, المكان

Abstract:
The place appears in the collection "When Lamps Burn" to include aspects and experiences that open up to the ego's special obsessions, where its experience is redrawn through texts inspired by the description of the realistic and psychological place that dominates memory.
In his texts, the poet employed this curve to depict the suffering and joys of the soul and reveal his thoughts and awareness through connotations that indicate the accumulations of the past, the burden of the present, and the feelings it opens in the self.
Keywords: When the lamps burn, Hassan Abdullah, Al-Qurashi, the place

المقدمة :

ولد الشاعر حسن عبدالله القرشي في مكة المكرمة سنة ١٩٢٦ , وتلقى تعليمه فيها حتى نال شهادة الليسانس في التاريخ مع مرتبة الشرف, ثم مارس وظائف متعددة, وعُين سفيراً للمملكة العربية السعودية في عدد من الدول منها موريتانيا والسودان.

شارك في إثراء الساحة الثقافية الأدبية بإنتاجه الشعري والنثري الذي امتد لخمسة عقود, ويعد القرشي من أهم الشعراء المجددين في الجزيرة العربية، وهو من أوائل من كتب بوزن القصيدة التفعيلية في السعودية. صدر ديوانه الأول (البسمات الملونة) في القاهرة سنة ١٩٤٧ ، وبلغت دواوينه الشعرية ثمانية عشر ديوانًا توزعت بين الشعر العمودي وقصيدة التفعيلة, كما كتب القصة، والمسرحية، والمقالة, وله كتاب أدبي بعنوان (فارس بني عبس)، وأصدر في النقد كتابه (نقد المرصاد)، تحدث عن تجربته الشعرية في كتاب أصدره بعنوان (تجربتي الشعرية). توفي سنة ٢٠٠٤ بعد أن مُنح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة أريزونا في الولايات المتحدة الإمريكية في الثقافة والأدب.

أما مجموعته الشعرية (عندما تحترق القناديل) فتنفتح على قيم وتجارب تمتلك الأنا في المكان الواقعي والنفسي, حيث يرد القول بالمكان في فضاء تصوير هواجس النفس ومعاناتها, فيضمّ دلالات تحيل على هوية الأنا ووعيه في محورين, أولاهما البعد الذاتي: الذي يرد فيه المكان في فضاء يكشف هواجسه وما يكتنفه من مشاعر، حيث يأخذ المكان في هذا المدى قيمة في الذات تجلت عبر مفاهيم تتعالق مع آثار وصلات متعددة, وثانيهما البعد القومي: الذي يرد في فضاء يكشف فكر الشاعر وارتباطه الواعي بالمكان المنتقى، الذي يتجلى في الوعي القومي المتعالق مع وقائع ومتواليات تشفّ عن فساد الواقع، وسوداويته، حيث بدا الاغتراب في المكان بديلاً تعويضياً للخراب الذي يستوطن جسد الأُمة, وسنبين هذين المحورين مستخدمين المنهج الموضوعي, عبر الآتي:

مدخل :

يهتم المنهج الموضوعي ببحث موضوع محدد بصورة شاملة, عبر جمع الثيمات الخاصة به ومن ثم القيام بتحليلها وربطها لغاية الحصول على نتيجة واضحة ومتكاملة, ((وقد شكلت الاتجاهات الإسلوبية والألسنية التي تعتمد التحليل اللفظي ومفهوم المعادل الموضوعي والنقد الجديد مناخاً عاماً انضوى تحت اسم النقد الموضوعي, وتصدى للاتجاهات النقدية التي اعتمدت العلوم المساعدة التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع والإيديولوجيا))(عزام, ١٩٩٩ , ص٥). لذلك اخترنا

هذا المنهج لدراسة المكان في ديوان (عندما تحترق القناديل)؛ لأن الديوان وظّف ثيمات خاصة للمكان للتعبير عن عواطف وإيديولوجية الشاعر وانتمائه إلى أفكار يضع عبر آفاقها مكامن وعيه وأبعاده، ((ويمكن القول بأن وعي الإنسان بوجوده كإنسان لا يتم إلا عندما يعي محددات وجوده الحقيقية، أي عندما يعي كيانه المتجسِّد، فالجسد هو ما يسمح للزمان بأن يتنضَّد على المكان، أي أنه نقطة اقتران الزمان بالمكان))(سعيد, ١٩٩٣، ص٥٤), فجاء الخطاب الدلالي عبر ثيمات المكان في المجموعة مفتوحا على حوارات النفس في صراعها مع واقع حزين، منسل من متغيرات أنتجتها الحضارة عبر بناها المتسارعة التي فتحت في ذات الإنسان أزمات كبرى.

الواقع المهشَّم الذي يستفزّ الأنا بخوائه وعدميته يرد عبر توظيف مفاهيم خاصة، تأخذ من المكان ثيمة لنقد هذا الواقع الشرير ومحاولة بناء يوتوبيا مكانية تحتضن زمان الألفة والحميمية المفقود في واقع الاغتراب النفسي والفكري الذي يلفّ الشاعر.

النص في (عندما تحترق القناديل) يضم مسميات ترتبط مع أمكنة مختارة تشفّ عن حاجة الأنا للتواصل مع قيم تركت بصماتها في الكيان الشعوري للذات، ليتكوّن عبر البعد النصي في المجموعة مدى يضم عواطف الأنا التي ترد عبر علامات لغوية تصف عالم الذات الداخلي وما يترشَّح خلاله من شجون وجدليات، ((ولما كانت العلامة اللغوية ترجع في كثير من الأحيان إلى أشياء بصرية أو مرئية لها صفة مكانية، فإنه يترتب على هذا إدراك خاص للأنساق اللغوية، يحدده اتخاذ مفاهيم بعينها صفة مكانية)) (عثمان, ١٩٨٦، ص٦٠), تشكّل وعي الشاعر في آليات تفتح على تجارب تخص الأنا في تفاعله مع مفردات الكون وفي تفاعله مع الآخرين، فتأتي رؤى الذات عبرالمنظومة النصيَّة مستلهمة تجاوب الذات مع المحيط عبر توظيف دالَّة المكان الذي يثير حدساً خاصاً في مخيلة الأنا في زمن إنتاج النص، ليشفّ عن هواجس الأنا المنبثقة في مكان وزمان خاص .

واصطفاء المكان في المجموعة جاء متلاحما مع هواجس تشف عن معاناة وقلق، لتأخذ أبعادها في النص الذي يبدو مسرحاً للتعبير عن تلك المعاناة وتعالقها مع فضاءات المكان والزمان في واقع التجربة الحية للشاعر، ((والعمل الفني الحقيقي يبدأ من كونه أثراً على ذاته، معنى هذا أنه يكتب زمانه من مكانه (وبالعكس) ذاته من الآخر (وبالعكس) .. إنه يتفانى)) (آل سعيد, ١٩٩٨، ص٣٦), ولذا ورد المكان في مجموعة (عندما تحترق القناديل) في محورين:

الأول/ البعد الذاتي:

ينفتح البعد الذاتي باستلهام المكان في المجموعة لتتشكّل عبر محاوره جدلية خاصة تأخذ من هواجس الأنا مادتها الأساس، فيأتي فيها المكان منطقة لوعي التجربة المعاشة عبر الوجود الحرّ للذات, إذ يبدو نافذة لتراكمات الماضي الهزيل، وأوجاعه وأمراضه التي تتشظى في الجانب المعنوي للنص، لتأخذ منحنيات تشف عن تجارب الأمس وما تركته في الأنا من ندوب، ويتموضع المكان ليأخذ مديات تشف عن: ضياع، وضحايا، وهذيان، وأشلاء ... ؛ فيبدو معطى قارّاً في الذاكرة تترسّم في أبعاده هواجس التجربة في المكان المعين، حينما يبدو للماضي المضيَّع تلالا تتمركز في صحارى الوهم عبر القول :

يعيش، يعيش رهن الشوك
رهن تلال ماضيه المضيّع
في صحارى الوهم
تسحق حلمه
الأمواج
والإعصار
والغضب
(القرشي, ١٩٧٤، ص٢٨)

يرد المكان في بنى النص مع مفاهيم تكشف اغتراب الأنا في الوجود الخاوي الذي تتحسسه دواخله، وزوال الأشياء الجميلة وتهدمها في أبعاد المكان الذي يستقر في وجوده, فيقول:

غريب، والدخان

وليلنا والسهد على الأجفان
وأشواق تضجّ
رؤى العذاب تغلّها، تمتصّها
ويلوكها القرصان
وموج إثر موج
والمصابيح الكئيبة
والضباب يلحّ يهزأ بالكهوف
ونجمة بلهاء
وأشياء مخضبة، مبعثرة
تناقض روحها الأشياء(القرشي, ص٤٧)

فكرة زوال الأشياء الجميلة تتعالق في الذات مع ثيمة المكان التي تبدو في النص مساحة مقفرة تحتضن هواجس الأنا بخساراته وانهزاماته، ليبدو المكان في قلب النص بؤرة تترشّح عنها أبعاده ومنحنياته, يقول:

غريب يعلك الجمرات
يشدّ حصانه لمنابع الآلام والآهات
تلفظ ركبه الساحات
ويظمأ والسراب شرابه
وطعامه الأنّات(القرشي, ص٤٩)

تمرد الأنا على واقعه المهشّم وبحثه عن قيم تسوّغ الحياة يرد عبر قوله بالذكريات التي تتعالق مع دلالات النص الكلية، وهو بهذا الهاجس يرفض الاستسلام لهشاشة الواقع وسوداويته، فنراه يبحث عبر فضاء الكلمة في صلب المستحيل عن مساحة تتفلّت منها جماليات خاصة، وفي هذه المساحة بالذات يبدو المكان حميمياً تتصل تداعياته مع لحظات السعادة, فيقول:

ذكرتكِ أنتِ ياقدر الغريب
بساحة الحرمان
ويا خيط الضياء إليّ
يعبر سدفة الآفاق، مشتعلاً
ويسحب حالك الأكفان(القرشي, ص٥١)

المكان في الجانب الذاتي يرد بمدى يكشف أحاسيس الشاعر مع ذكر ثيمات: الخوف، والأمل، والعقم، والخواء, إذ تكون هذه المفردات محملة بالتعبير عن تجارب معينة مثل الألم والذكريات والفقد وغيرها من العواطف، ((إن الشاعر يغوص أكثر حين يكشف مساحة شعرية لا تحتوينا بعاطفيتها، والحق أنه مهما كان التأثير العاطفي الذي يلوّن مكانا سواء كان حزيناً أو مضجراً فما دام قد تمّ التعبير عنه شعرياً، فإن الحزن يتناقص ويخفّ الضجر))(باشلار، ١٩٨٠، ص٢٦٦), وهذه الهواجس وتداعياتها تنفتح في خطاب النص حول الوجود، وجدواه، عبر حركية الذات الإنسانية ودورها في صنع المصير، فالمنجز الشعري يفتح جدليته حول المقدرة الشخصية لإنتاج آفاق تحد من الخواء والخسارات التي يفرضها واقع هزيل, فيقول :

دعينا منكِ يا أسوار
يا شوكاً بلا أعماق
دعينا منكِ يا قصباً بغير جذور
ويا عشباً بلا سيقان
دعينا منكِ يا أحجار

دعينا منكِ يا جدران(القرشي, ص١٠)

كما يرد ذكر المكان في نصوص القرشي في فضاء التعبير عن تفاصيل روحية للذات الشاعرة وهواجسها، فيتجلى في مدى يكشف حركيَّة المشاعر وتناقضاتها، ((إن الشاعر المتأمل يستطيع أن يكتشف الصلة بينه وبين واقعه من خلال ارتباط الاثنين بمفهوم الحرية، ولذا فالمكان سوف يرفض أية تصورات لا تربطه بالحركة)) (النصير, ١٩٨٦، ص١٩), فيحيل بذكره على آلام ورغبات الأنا في الوجود الذي يحتضنه المكان، الذي يبدو دلالة رمزية لنصوص (عندما تحترق القناديل)، وذكر المكان بهذا الاتجاه يعبر عن خوف ومتمنيات تشفّ عن تجارب وصلات تكمن في أزمنة يحاول الشاعر رسمها نصيا, ومنه قوله:

تمردتْ الرؤى
واصفرّ وجه الليل
وانتحبت هنا الجدران
وهوّم في ظلام الغاب مكتئب
وتاه معذب حيران
وهأنذا أغني في عذاب الصمت
وحدي أمضغ الأشعار
وشاحي جمرة، وعلى جبيني النار(القرشي, ص٤٣)

ويظهر الشعور النفسي بالارتباط بالمكان مع خصوصية الموقف الذي يستحضره الشاعر في فضاء النص، ((فإذا كانت حقيقة المكان في الشعر نفسية وليست موضوعية، كان تشكيل الصورة متفقاً تماماً مع حقيقة المكان النفسية، وعلى هذا ينبغي أن ننظر إلى الصورة الشعرية لا على أنها تمثل المكان المقيس، بل المكان النفسي، الشاعر في كثير من الأحيان يفتت الأشياء الواقعة في المكان لكي يفقدها كل تماسكها البنائي الماثل أمامنا، ولا يبقي منها إلاّ على صفاتها)) (إسماعيل, ١٩٨٣، ص ٦٦), وواقع التجربة التي يحددها وعي الذات بالمكان، للتعبير عن أبعاد راسخة في مساحة خاصة من الكون كما في قوله:

على سور الضياع
بساحة الأشجان
ومن أرض الضحايا
في صخور الشمع
غنتني الرياح السود(القرشي, ص٧)

يبدو المكان رمزاً لحقيقة يراد بثها في المقترب الشعري الذي يشفّ عن الذات، ويكرس أبعاده الدلالية عبر القول الشعري الذي يكشف صراعات الأنا وحوارها مع الآخرين فيقول :

شواطيء أمسنا
مطر الخريف أعلّها بالنار، بالكبريت، بالآهات
تكوّمت الظلال على الذرى
هشّت تماسيح الظلام
(القرشي, ص٨)

ويتمثل النص عبر القول بالوجع أو الاستسلام دواخل الذات عبر الارتباط الفعلي بصراعات الواقع المنتهية ضمناً إلى هذين البعدين, ويرد المكان في هذا المدى رمزاً لتبدّل الأشياء, حيث يستحيل إلى مادة للخوف المتضمن قلق الأنا من زوال لحظات السعادة المتشيئة في مفرداته، ((فيبرز العامل المكاني عنصراً من عناصر الخوف لدى الشاعر بكل ما يمكن أن يحققه فيه من قلق، المكان قدر بيئي من مدركات الشاعر, ولكنه مدرك يحمل الذات حصة من الخوف تظل تعمل عملها فيه، إن السعادة المكانية بمعنى السعادة التي يحققها جو مكاني ينشده الشاعر لا تعدو كونها سعادة مؤقتة سرعان ما

يذهب به الخوف من ضياعها كل مذهب لأنه يخاطب المكان السعيد بلا وعيه المؤمن بالزوال المحتم)) (إبراهيم, ١٩٨، ص٨٩), ويتجلى المكان في بعده الرمزي ليحتضن رؤيا الشاعر وجدلياته التي تمثل جزئيات الحياة وتفاصيلها في البناء النصي, فيقول:

حصان الفجر ضاع
وغامت الذكرى على الشطآن
وينفضني الرماد
أحسّ بالموتى
وبالأكفان

وفي النهر الملفّع بالمرايا الحمر(القرشي, ص٤٤, ٤٥)

كما يرد ذكر المكان مع مفاهيم تأخذ أبعادها من ذكريات التجربة التي يصورها النص حيث يرصد الشاعر التحولات الروحية والمعيشية التي تركت بصماتها في زمن خاص، ومنه زمان الغربة بقوله:

يا دنيا الكآبة
يا جسور
سلسلي المأساة وانطلقي
سحابتكِ المطلّة في دمي
تستنبت الأشواك في عنقي
تضاعف غربتي بصفائح الفولاذ كالغسق(القرشي, ص٨)

كما يرد ذكر المكان مع الإحالة على عقم الواقع، يبدو النص في هذا المدى ثورة روحية لرفض الفساد والزيف في أبعاد قارّة في صلب الكون ليأخذ المكان في فضاء القصيدة علامات الضيق والوحشة متجاوراً مع ضيق النفس وهواجسها, ومنه قوله يذكر الشقوق والحفر:

تسائلني السفائن
وهي حبلى
هل شهدت مصارع الغربان ؟
تطلّ من الزوايا والشقوق
بكفّها الحجري تحفر رمسها
محمومة الهذيان
ثعابين ربابنة
بلا خجل ، بلا إيمان
زبانية بلا سمع ، بلا بصر ، بلا فكر
على بوابة الأزمان ! (القرشي, ص٩)

ويبدو مشهد ذكر المكان في النص مرآة تعكس تفاصيل وعي الذات ومشاعرها وأزماتها التي يشفّ عنها البعد المكاني المحتضن ليوميات التجربة، ((وهنا تلتقي فلسفة الصورة مع التفسير الشعري للمكان، فنحن نقول إن الشاعر يشكل الصورة وإنه يستمد في تشكيله لها عناصر من عينيات ماثلة في المكان، وكأنه بذلك يصنع نسقاً خاصاً للمكان لم يكن له من قبل))(إسماعيل, ص١٢٨) , فيتمثل البعد المكاني تجارب تكشف عن مواقف الأنا وهواجسه, فيقول:

القناديل قد هرمت في ذراها
بُعثِرت في دروب الجنادب
والرؤى انتحرت
شاخت الثرثرات

وثكالى رمال الصحارى العجاف
ولولت، ساغبة!
(القرشي, ص٢٤)

ويضم القول بالمكان دلالات يشير بها الشاعر للصراع القائم بين المتمنى وواقع الأنا الذي يبدو في هذا المدى شاهداً على علائقه ورؤيته للكون، حيث يشفّ عن إسقاط لتجربة ما يكون النص مادة لها, كقوله يذكر الضفاف:

أسمع صرخة الحيتان
وأصغي للنعيب على الضفاف السمر
يرفع راية الغربان
تضيع مع الضباب الحالك الموتور
تهوي
قمة الإنسان !(القرشي, ص٤٥)

كما يضم النص مع ذكر المكان قيماً لوعي الحياة وما فيها من معطيات ومظاهر وصلات تحيل على هوية الذات وحاجاتها, وكوامنها المشتملة على صراعات, حيث ترد في فضاء من الحيرة أو القلق, على سبيل المثال يرد القول بالمتاهة إحالة على الضياع والتشتت والغربة بقوله :

يشدّ على خطاه الرمل
تحصبه رياح التيه
في وادي الأسى
يلتذّ بالجمرات في بيدائه ينأى ويقترب(القرشي, ص٢٧)

كما برزت مخاوف الذات بابتعاد الزمن الجميل مع ذكر ثيمة المكان، التي وردت عبر المبنى النصي متجلية بصور ودلالات تشير إلى قلق وحيرة, منه القول بالتهرؤ والقتام والأرق مع ذكر البحر والشطآن :

تهرّأ نايه المجروح
غاض الشوق من بحر الرؤى
أزرت به الشطآن
وجلّله قتام الأمس
أرّق فجره التعب (القرشي, ص٢٧)

وفي نصوص أخرى يرتبط المكان مع زمن الغربة والملل والتيه, فالبعد المعنوي للمكان يمثل المعطى النفسي الذي يوفره في ذات الشاعر وذاكرته، ومنه القول:

يجرّر غربة القلب المكبل
ملّه ومض السراب
يهيم فوق النجم
شدو حياته الواحات
لكن عمره لهب
(القرشي, ص٢٨)

ويرد مع ذكر المكان في نصوص أخرى القول بالألم والزمان الذي يضمه ويأخذ في هذا المسارمساحات مفتوحة لا نهائية أو ضيقة محدودة تنطلق من إحساس الأنا بتجليات الألم المراد التعبير عنه، كقوله يذكر انتصار الكآبة وصخور الأسى مع الأطلال وهو بعد مكاني دلالي على الفقد:

بعدما انطفأ الحلم
بعد احتباس الصدى في الجنازة

بعد انتصار الكآبة
بعدما أورقت فيّ صخور الأسى
فوق أطلال المروءات
فوق الصباح
ظلاله السحابة
يعمق الجرح
ينتفض الموت
يبكي على الذكريات
(القرشي, ص٤٥, ٤٦)

إن استلهام المكان بوصفه دالة على استذكار أزمة أو تجربة أو صلة، ترد عبر فكرة أو عاطفة يستثمرها الشاعر للتعريف بوجدانه وما يضمه من هواجس ومشاعر تأخذ مداها في الذات بصورة أكثر عمقاً ودقة مع ذكر حواس منتقاة يلتزم عبرها تصوير ما يراد كشفه من صلة الذات بالمكان المنتقى, ومنه حاسة السمع حيث ترد بالقول بالهمس والألحان والصدى, بجوار الارتماء على الجدران في قوله:

وأنتِ ، وأنتِ ..
يا همس القرون
ودفقة الألحان
ذكرتكِ واعتصرت صداكِ
فانفجرت بي الجدران
ذكرتكِ حالماً بالموت ، بالمأساة
في بوابة الأحزان
ذكرتكِ ضامئاً للفجر
للأمطار
للأصحاب
مرتمياً على الشطآن
(القرشي, ص٥٠, ٥١)

فترد ثيمات المكان في المجموعة متعالقة مع ثيمات الزمن لرسم مظاهر التجربة ومتوالياتها، حيث التعبير عن دواخل الأنا, وعلاماتها, كذكر المساء وظلام اليم للكشف عن الغربة والغرق في مجاهلها, بقوله:

غريب .. فوق أنهار المساء
سرى بغير شراع
أسير غاص حتى القاع
تلوح الشمس فوق وشاحه
ترنو .. وتنغمر
يغيب سنا
يضيع وشاح
وفي أذنيه ثرثرة الحيارى
في ظلام اليمّ (القرشي, ص٤٨, ٤٩)

يعبر الشاعر بذكر بعض الأمكنة عن الغربة والترحال، وأحوال الانتظار المرّ التي تثير التعب والقلق, حيث سمات واقعه المرفوض وعالمه الذي يحتضن أبعاد الوحدة النفسية في غربته, ومنه قوله:

غريب ...
غربتي تعب .. وإجهاض وترحال ..
لغير إياب
غريب ..
عاش ينتظر القطار
على وصيد الباب ! (القرشي, ص٥١)

المكان في هذا المدى مسكون بالوحشة وتعطّل لحظات السعادة, وقد وردت هذه الدلالات في القصائد: حواري الحزن، وعندما تحترق القناديل، وسياط الذئاب الصفر، وفي عذاب الصمت، ومن أطياف الغربة, التي تبنت الكشف عن الأنا وصلته بالمكان.

الثاني: البعد القومي:

يعبر الشاعر عبر البعد القومي بذكره للمكان في (عندما تحترق القناديل) عن مسارات تؤكد وعيه بقيمة المكان وصلته القومية به، ((وللقومية في أدب الخليج جانب مثير فأدبها واسع المجال يدل على تعلق الأدباء بقضايا أوطانهم ففي العروبة ذاتها نقرأ لعدد من شعرائه ولقضايا العروبة)) (الطائي, ١٩٧٤، ص٥٥), حيث يكشف النتاج الإبداعي عن شعور الإنسان العربي بخواء الواقع، وسوداويته، حتى بدا الاغتراب في المكان بديلاً تعويضياً للخراب الذي يستوطن جسد الأمة, يقول القرشي:

يسحق القيد أقدامنا
ونعيش ، ونمشي ، ظلالا ، ظلالا
تماثيل ماضٍ نحاسية
بذوراً خرافيّة في حقول الصدى
وعيوناً مفقّأة بالنعاس
وأسراب جرحى ، فلولا ، فلولا
وأشرعة خائبة! (القرشي, ص٢٦)

ويحيل ذكر المكان في شعر القرشي على فكره وإيدولوجيته باستحضار مفاهيم وقيم للفعل الذي يتبنى العمل على تغيير الواقع الفاسد والعودة إلى زمان الوحدة والنقاء, فيأتي النداء للحرية دعوة لتحطيم القيود التي فرضتها القوى الكبرى لتستوطن في جسد الأمة، فيبدو القول بالحرية في فضاء النص أداة لتطويع الإرادة والسعي الحثيث للوصول لبيئة تتمثل تدمير مواطن الضعف وتطهير الأرض من أرجاس العدى, يقول:

(سنسحقهم) ما تزال تجلجل تصرخ في كلّ واد
وهم يرتعون بكلّ الذرى وبكلّ المهاد
(سنثأر، نقطع أوردة المعتدين نطهّر أرجاسهم من ثرانا ...)
وهم والغو دمنا، طاعمو كرمنا، كالجراد
حزيران قد عاد رغم التمزق والرفض
رهن انهيار المواقف
والخيل ملجمة
والسرى غابة من قتاد
(القرشي, ص٦١, ٦٢)

ويتجلى الخوف مع ذكر الشاعر للمكان في البعد القومي في فضاء التعبير عن الخسارات ومواطن الضعف والهزيمة، إذ ((ضرب الشعراء المعاصرون – ومن ضمنهم شعراء نجد – على الأوتار الحساسة بأن أثاروا العواطف في الجماهير، وحركوا المشاعر))(بن إدريس, ١٩٦٠، ص٣٠), فتمثل النص عبر كشف هذه المفاهيم تحفيز الفرد ودعوته لامتلاك

الحياة الحرة واختيار المصير, ودفعه للعمل على التخلص من الهزيمة وسوداويتها, بتوجيه الوعي لما تفرزه النكبات الملمة بجسد الأمة وتمظهر حالات التخلف واستسلام الذات العربية لوطأة القوى الكبرى, ومنه قوله:

حزيران عاد
حزيران عاد
حزيران قد عاد عبر انسحاق المنى في دروب التفاهات
عبر الهزائم والثرثرات
وعبر الضباب المُلحّ وعبر السهاد
وعبر تلال الحماسات، مثقلة بالحماقات
عبر الضياع العقيم
وعبر الفداء الجريح المكبَّل
عبر الحداد (القرشي, ص٦١)

ويضمّ النص في هذا الاتجاه الدعوة للتمرد على الواقع واجترار الأحلام، ((إن الشعر الحزيراني هو الشعر الذي عمّق حزيران رؤيته لحقيقة طالما كانت ماثلة ...,كما أصبح النظام وكل وجوه التقليد والالتصاق بالوضع الراهن حاجزاً كبيراً يحول بين الإنسان وبين معنى وجوده))(كريم, ١٩٧٢، ص١٥٩), فكان النص كاشفاً للضعف والمتاهات وغياب الوعي والذات المعطلة, فيقول القرشي:

تنتشي بالأقاويل
تجترّ أحلامها
تتلظّى صدى، عبر جمر الأفاريز
عبر الأسى والسراب
وعبر المتاهات والسخريات
أمة غائبة! (القرشي, ص٤٣)

ويلتزم النص في وصف فساد الواقع ايراد مفاهيم متعددة يبدو فيها المكان ضوءاً كاشفاً للعتمة المسيطرة على الذات تجاه هذا الفساد ومتولياته, منها ذكر الظلال الجهمة, والحريق, والغربة, والروع, والاستباحة, كما في قوله:

فعلى الأقصى ظلال جهمة وحريق بات يشتدّ ضراما
قد شكا المحراب من غربته أين منه (عمر) يجلو القتاما ؟
عاث فيه السامريون الألى عبدوا العجل ضلالاً وأثاما
روّعوا النساك في خلوتهم واستباحوه صلاة وقياما (القرشي, ص١٩)

كما يتوخى الشاعر بذكر المكان إنتاج قيم تأخذ من الإنسان بعداً للرقي والحرية ودفع الخمول والمرض وتجاوزه لغاية آفاق السلام والخير, كالقول بالعبور والفداء مع ذكر الجسور في قوله:

كيف بالله نعبر تلك الجسور؟
ساءلتني رياح المساء
كيف نمشي ولما تزل في القبور
همهمات الفداء
قلت والخنجر المستبدّ
بصدري يمور
وشظايا الفناء (القرشي, ص٢٥)

لقد جاء استحضار المكان منفتحاً على التفاعل مع الواقع المتلاحم مع مشاهد وصور تعبر عن توجهات الأنا وانفعالاتها, وأزماتها, ومراحل تشكل وعيها, فيقول معبراً عن الهزيمة, مستخدماً الخيام بوصفها المكان الدال على الخسارة:

سائلي الراقصين على جبهة الفجر
والخانقين غصون الجنى
والألى نصبوها خيام الهزيمة
سائلي لبنات الجريمة
سائلي شاربي مطر الذل
والشاهرين المُدى الكاذبة (القرشي, ص٢٦)

ويرد ذكر الماضي وآمال المستقبل عبر فضاء متعالق مع ذكر أمكنة محددة, منها ساح الفدى باحتوائها زمان الفعل المراد واتجاهاته على أرض الواقع الحي, ومنه قوله :

كبرياء الجرح فينا قدر قد ورثنا فيه آباء عظاما
بذلوا الأرواح في ساح الفدى كان فيهم خالد يشأوا هشاما
كلما هلّ أذان أو سرى بارق أسرى لك القلب هياما (القرشي, ص١٩)

كما يرد ذكر المكان مع ذكر تجليات الجمال والخير مثل القول بالندى والشروق والعطر وغيرها التي جاءت بوصفها وسيلة للتعايش في واقع سيء يضم الجروح والنزف والدموع حينما تكون الأرض مستباحة, فيقول:

والأغاني لم يزل فيها ندى
ولم تزل تشرق بالعطر الذرى
والجرح لما يستجب للنزف بعد
والمحاجر الغرّ حبلى بالدموع بعد
والنواقيس تغني
والأذان مجلو الصدى
هل ترقأ الدموع ياقدس
إذا لم نستعد ذاك الثرى؟ (القرشي, ص٥٥)

ويرد مع ذكر المكان المسلوب في نصوص الشاعر ذكر القتل, والصلب, واليأس, والاختناق, والوجد, وغيرها من الدلالات، التي تجلت بوصفها إشارة على الاستباحة وتهاوي الكبرياء والقهر, ومنه قوله :

والآن يا « قدس « قتيل الشوق، مصلوب معرّى
زاده العذاب
مهاده القتاد، وطعامه السراب
الدم في شدقيه، والسمادير لعينيه رؤى
واليأس والحراب
يستنجد الأحجار – لا تنجد – يستجدي الخراف
والقطيع حوله سدى
اختنق الهتاف، وانشقت حناجر الرعاة
يا « قدس « من الوجد
وكبرياؤنا تهاوت بددا!(القرشي, ص٥٦)

ويعبر الشاعر بذكره للمكان عن وعي الذات وتمرده على متناقضات الحاضر وتراكمات الماضي وسوداويته، عبر توظيف مفردات دالة على الاستباحة والرفض والدعوة إلى صناعة المستقبل الحر وكسر الضعف والخواء المتفشي في مفاصل الحياة, ومنه قوله يذكر فلسطين بالتعالق مع الحرق والنخر والرزايا:

يا (فلسطين) وفي أضلاعنا حرق تنخر لحماً وعظامـا
والرزايا حولنا جاثمـة م تدع شيخاً ولم ترحم غلاما

لا تخاليها عنت راياتنا لن يهون العرب لن يخشوا حماما
لهب في دمنا لن ينطفي يرفض اليأس ويستحيي الرجاما (القرشي, ص١٨)

ويستعمل الشاعر ثيمة المكان في بعده القومي ليمثل معاني الوحدة, حيث يبدو المكان إشارة لما يكنّه شعور المواطنة القومية, فتتبدى هواجس القلق والخوف التي تفصح عن استلاب الأرض والأمان, ((وهكذا حمل الشعر العربي مسؤوليته في غربة الأرض وغربة الشعب، وأحس أنها مأساته، فعاش التجربة وعبّر بصدق)) (فهمي, ماهر حسن ، ص٩٣), فيقول يذكر القدس:

« القدس «
أين أنتِ اليوم يا أنشودة الجدود والأحفاد ؟
« القدس»
أين أنتِ اليوم يا ساح صلاح الدين ؟
يا مزرعة الأبطال ؟
يا حديقة الآمال ؟
أتيتها من قبل أن يلفها الظلام والضباب والدخان
وقبل أن تعيث في ثراها الطهر حفنة الغربان
قبل مصارع الأحلام، قبل الجدب والضياع والخواء
وقبل أن نقفز في الفراغ في الهواء
أتيتها والزرع يفترّ خصيبا (القرشي, ص٥٤, ٥٥)

كما يتمثل البعد القومي ذكر الشاعر لأمكنة تفتح في ذاته عواطف مرهفة وشجون، كذكره للبنان وما فيه من عبق وذكريات:

إيه لبنان ولبنان العلى عبق الطيب، ونجوى الموعد (القرشي, ص٣٥)

فكان اختيار ثيمات خاصة للمكان في نصوص الشاعر متعالقا مع التعريف بمشاعر الأنا ووعيه وصلاته وتجاربه المتنوعة، ((فالشاعر لصيق المكان، وابن شرعي لأحواله وهو في ذلك لا يستطيع أن يغيب الإلحاح المكاني في عمله مفردة من مفردات التجربة، فالشاعر لا يتحدث عن غائب، صحيح إنه يتحدث عن أمل ولكنه حين يتأمل فما ذلك إلا لوجود حالة استنباء بجديد مولود من رحم شيء مكاني))(إبراهيم, ريكان, ١٩٨٩، ص ٤٦), ينتمي إليه الشاعر ويضمّ علاقاته، يقول:

يا ضفاف الخليج يا شجر الـؤ لؤ يزدان فرحة الأجيـاد
يا تراثا مداده نغم الطيـ ـر وصرحاً من نجدة واعتداد
يا انطلاق المنى على شفة الفجر(القرشي, ص٥٩)

لقد عبر الشاعر باستخدامه لمسميات المكان المتعددة عن قيم ومفاهيم ورؤى، منها القول بالضياع, والذل, والقيود, والغياب, للدلالة على ما أصاب فلسطين ونكبتها, كما في قوله:

أتيتها مدينة السلام ، والسنا ، والكبرياء
ومهد « عيسى « ومراد أمه « العذراء «
أتيتها قبل خريف المذبحة
وقبل صيف الذلّ، قبل أن يهجع موتى الأضرحة
من قبل أن تعود ضيعة لتل أبيب
وقبل أن تجلّل القيود كفّها الخضيب
من قبل أن يحترق « الفرقان « في « الأقصى « ولا من يستجيب
قبل انحسار الصبح، قبل غيبة الرجال

وقبل أن تغوص أعناق النعام في الرمال
وتحصب الأحجار من جباهنا
ويسخر الأنذال(القرشي, ص٥٣, ٥٤)

ومنه ذكر الطبيعة وجمالها في لبنان, كما في قوله :

من ربى البان ومأوى أحمد للكِ يا لبنان زهر في يدي
ومن الخيف وظلّ المنحنى وصبا نجد حنين سرمدي
جئت أهديها الجنى أرض الجنى نفحة الخلد ومجلى الرغد (القرشي, ص٣١)

كما يذكر ربوع الخليج, ويستعيد ذكرياته في جنباتها, ومنه قوله:

يا ربوع الخليج باكرك السعـ ـد وجادتكِ صيّبات الغوادي (القرشي, ص٥٧)

فذكر المكان في النص لم يأت عبثاً أو ضرورة فنية حسب إنما كان ضرورة روحية تستوعبها الذاكرة هي استجابة حية لعمق التلاحم مع ثيماتها، ((فأحيانا يمتلك المكان الشاعر امتلاكا روحياً وجسدياً، فلا يعود المكان وعاء خارجياً يضمّ جسده فحسب, بل يتحول إلى وعاء داخلي يتغلغل ويحتضن شعاب روحه ويلتحم أحدهما بالآخر))(العزاوي, ١٩٨٩، ص ٤٠), كما إن اختيار الشاعر لثيمات المكان ترد مع دلالات الأحلام والمتمنيات، ليبدو المكان بيئة تضمّ في منحنياتها الوجود المبتغى الذي يتعاضد مع حاجات النفس, ومنه قوله:

كعائد من القمر
كقائد على خصومه انتصر
كالطفل حين يبكي بعد غيبة
عند لقاء أبوين حانيين باكيين
كأوبة الجندي للموطن بعد فورة الصراع
وكالمهاجر المشوق يستقر ولاوداع
كعاشق دنا له الوصال بعد أن أرّقه الفراق
أتيتها كعتبنا الأولى، وملتقى البراق
ومرتقى النبي للسماء(القرشي, ص٥٣)

ويرد المكان والتغني بأبعاده عبر فضاءات النص للقول باستشراف الآتي حيث التوق إلى العلى والمجد, كقوله يذكر لبنان:

غربة الشاعر ما أروعها
هي ينبوع عطاء سرمدي
إيه لبنان وفي لبنان لي
من مجاني الروح نبراس غد(القرشي, ص٤٢)

ووعي الشاعر بقيمة المكان عبر التغني بأمجاده يضمّ مدى لعالم جميل يمتلك حضوراً مميزا في الذاكرة، ليتجلى قيمة عليا في الذات تلتزمها مشاعر لحدود علاقات قارّة في الذات في ارتباطه مع البعد المكاني, ومنه قوله في تونس:

((تونس الخضراء)) يا مهد الجنى
يا رؤى الإلهام يا شوق الندامى(القرشي, ص٢١)

كما يستحضر ذكر المكان في النص مسارات تفصح عن دواخل الأنا، وتكشف عن فكر الذات والمفاهيم التي يتبناها الوعي به عبر دلالات الانكسار والفشل في معركة الوجود, ومنه قوله:

عنت راياتنا
وتقصَّفت أشلاؤها
لم تبكها عينان
وأوفض بعد سيل الفارغين

تقلّهم قطر بلا عجلات
تماثيل مكسّرة
نقوش معرة أطلال
وأسوار الزجاج ، حطام أحذية الدخيل
وضجة، ورمال (القرشي, ص١٠)

والمدى الذي يتحرك فيه البعد المكاني في فضاء النص يضمّ رؤى تنفتح على الكيان الشعوري, الذي يستحضر الخسارات والغياب والمرارات المتكررة التي ورد القول بها مع ذكر القيظ والسراديب المعتمة والجرح والمجازر والمآسي, كما في قوله:

أمة غائبة!
علمتها الفجاءات كيف تسيغ المرارت
أرهقها القيظ
في سراديبها المعتمات
تبتلع الجرح والذكريات
تعيش المجازر
يوجعها الحقد
تحيا مآسيها الراعبة(القرشي, ص٢٣, ٢٤)

وبالمجمل فالأبعاد التي وردت مع ذكر المكان في المنجز الشعري لمجموعة (عندما تحترق القناديل) لحسن عبدالله القرشي, تبنت حوار الذات النفسي والفكري للبوح بمشاعره ووعيه, وقد وظفه فنياً في البعد الذاتي والقومي معرباً عن هواجسه وتفاعله مع الكون، من خلال مشاهد تكشف عن تلاحمه العميق مع أمكنة متمركزة في وجدانه ووعيه الواسع.

المصادر:

-إبراهيم, د. ريكان, ١٩٨٩ , نقد الشعر في المنظور النفسي, ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
-إسماعيل، د. عز الدين, ١٩٨٣، التفسير النفسي للأدب, دار العودة ودار الثقافة، بيروت.
-إعتدال عثمان, ١٩٨٦ , جماليات المكان ، مجلة الأقلام, ع ٢ ، بغداد .
-باشلار, جاستون, جماليات المكان، ١٩٨٠ ، ترجمة. هلسا, غالب، كتاب الأقلام، يصدر عن مجلة الأقلام، دار الحرية للطباعة، بغداد .
-بن إدريس، عبدالله, ١٩٦٠ , شعراء نجد المعاصرون. دراسة ومختارات، ط١ ، القاهرة، مطابع دار الكتاب العربي .
-حسن عبدالله القرشي, ١٩٧٤ , عندما تحترق القناديل، الدار التونسية للنشر، تونس.
-سعيد, د. جلال الدين, ١٩٩٣ , فلسفة الجسد ، ط٢، تونس.
-شاكر حسن آل سعيد, ١٩٩٨ , أنا النقطة فوق فاء الحرف دراسات ونصوص في الفن والإنسانية، ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة, بغداد.
-الطائي, عبدالله, ١٩٧٤ , الأدب المعاصر في الخليج العربي، المنظمة العربية للثقافة والعلوم.
-عزام, محمد, ١٩٩٩ , المنهج الموضوعي في النقدالأدبي, اتحاد الكتاب العرب.
-العزاوي, د. نادية غازي, ١٩٨٩ , المكان والرؤية الإبداعية ، مجلة آفاق عربية، ٣ ، ٤ .
-فهمي, الدكتور ماهر حسن, الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة الجبلاوي .
-كريم, فوزي, ١٩٧٢ , من الغربة حتى وعي الغربة ، مديرية الثقافة العامة، دار الحرية للطباعة ، بغداد .
- النصير, ياسين, ١٩٨٦ , إشكالية المكان في النص الأدبي, ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد.